لديه فقط. وهكذا ـ كما يدعي لوك في الفقرة الثانية من الاقتباس الأول ـ قد تمثل الكلمة فكرة ما في ذهن المتحدّث الذي ينطق الكلمة. ولذلك فإن الكلمة التي أنطق بها تمثل فكرة معيّنة في ذهني؛ ولكنك لا تعرف أية فكرة أحاول أن أجعل الكلمة تمثّلها لأنه لا يمكنك ملاحظة العلاقة بين الكلمة والفكرة التي أبديها. وباختصار لأن المعنى فعل إرادي يقوم به المرء اعتباطا ضمن خصوصية ذهنية، فإن النطق بالكلمات (في أفضل الأحوال) طريقة ناقصة لتعريف الآخرين بالأفكار، وعلى النقيض من وجهة نظر لوك المثالية عمّا يجب أن تفعله اللغة لنا، أي نقل المعرفة من ذهن شخص إلى آخر. نراه يطرح هذه الصورة المربكة لعدم كفاءة اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر.

كل إنسان يتمتّع بحريّة كاملة لكي يجعل الكلمات تمثّل الأفكار التي يودّ التعبير عنها وليس لأحد سلطان أن يجعل الآخرين يكوّنون الأفكار نفسها التي توجد لديه في أذهانهم عندما يستخدمون المفردات نفسها التي يستخدمها هو.

(المقالة: الكتاب الثالث، الفصل الثاني، الجزء الثامن)

وهكذا تنطوي اللغة على خطر كامن يتهدد تحصيل المعرفة ونشرها. لأنها وللوهلة الأولى تبدو كأن لها سمات الوسيلة الكاملة لنقل الأفكار وتوصيلها من خصوصية ذهن شخص معين إلى آخر . ولكن بعد التأمّل الدقيق، قد ننظر في الواقع إلى اللغة على أنها عرضة لما يسمّيه لوك «النواقص» وهي عبارة عن قصور في البنى التي إذا ما أغفلت سوف تقوّض الثقة التي نضعها تلقائياً في اللغة كونها «الرافد الأكبر». ويهدف الكتاب الثالث من «المقالة» قبل كل شيء إلى بيان تلك النواقص لجميع أولئك الذين يبحثون عن المعرفة ولذلك يعتمدون كلياً على اللغة. ويحاول الكتاب وضع الحلول لتلك النواقص.

نواقصها. ولسوء الطالع (من وجهة نظر لوك) تشكّل هذه النواقص جزءاً من الجوهر الأساسي للغة ومن العلاقة (الربط) بين المفردات والأفكار. ويمكن إيجاز فكرة لوك عن هذه العلاقة كما يأتي:

أوّلاً: إن الكلمة إشارة اعتباطية إلى الفكرة التي تمثّلها. بمعنى أنه ليس هناك مبدأ عام يحدّد الإشارة المناسبة لكل فكرة معيّنة. وهكذا ليس من الضروري أن يسمّى لون العشب أخضر ولون الدم أحمر.

ثانياً: يمثّل فعل لفظ المفردة الإشارة الصوتية لفكرة معينة فعلاً ويعبّر عن إرادة الشخص المتكلم. وهذا ما نقصده عندما نقول إن الكلمات هي إشارات إرادية للأفكار. وتفرضها إرادة الشخص المتكلّم. ولا تحدّد عمله عند استخدام كلمة معيّنة ـ بمثابة الإشارة إلى فكرة معيّنة ـ أي شيء سوى إرادته الحرّة. وحتى إذا ما حاول أن يوافق بين اختياره مع ما يعتبره الاستخدام الشائع ـ عند اختياره كلمة معيّنة لتمثل فكرة معيّنة ـ فإنه يفعل ذلك إرادياً.

وهذه تتّصل بالسمة الثالثة التي يضيفها لوك إلى العلاقة بين الكلمة والفكرة: وهي علاقة يقيمها الشخص. وليست المجتمعات (من المتكلّمين) هي التي تختار أن تكون كلمة ما إشارة إلى فكرة معيّنة. (كيف يمكن في الواقع لمجتمع أن يفعل مثل هذا الاختيار: هل عن طريق التصويت مثلاً؟) وبعد نطق الكلمة باعتبارها دالة صوتية على الفكرة فعلاً وهي الفعل الإرادي الذي يقوم به الشخص، لأن المتكلّم فقط يعرف الفكرة التي يودّ نقلها؛ لذلك فإن المتكلّم وحده قادر على اختيار الأصوات التي تصبح إشارة تمثل الفكرة.